مركز دلائل
Dala'il Centre

كراسات فكرية

نقد إشكالات هيوم على مفهوم المعجزة

رضا زيدان

سلسلة دراسات تصدر عن مركز دلائل - دراسة (١) ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

www.dalailcentre.com

نبذة تعريفية عن ديفيد هيوم :

"ديفيد هيوم" David Hume (١٧١١ – ١٧٧٦م) هو فيلسوف اسكتلندي من أشهر شخصيات الفلسفة الغربية الحديثة وعصر التنوير.

رغم شهرته كمؤرخ(١) واقتصادي، إلا أن أفكاره الفلسفية حازت علىٰ الاهتمام الأكبر من الأكاديميين، كانت كتاباته الثورية علىٰ الفطرة والكنيسة من أكبر داعمي الفكر التجديدي في ذلك العصر، لاسيما اعتداده بالعلم التجريبي واعتماد المنهج المادي الحسي لإعادة النظر في المعارف الإنسانية.

عاش بين اسكتلندا وإنجلترا وفرنسا وتأثر بمجموعة من علماء الطبيعة والمفكرين المعاصرين له أو السابقين مثل "إسحاق نيوتن" و"جون لوك" و"جورج بركلي" و"آدم سميث" و"جوزيف بتلر" و"فرانسس هتشون". فقد درس الفيزياء (كانت تُسمىٰ وقتها فلسفة طبيعية)، كما درس الفلسفات اليونانية الأبيقورية والرواقية، وطالع كذلك أفكار "فرانسيس بيكون" و"بيير بايل".

تناولت أعماله الطبيعة البشرية والمعرفة والدين والأخلاق، ومن أشهر كتبه (رسالة في الطبيعة البشرية) و(محاورات في الدين الطبيعي) و(بحث في مبادئ الأخلاق) و(مبحث في الفاهمة البشرية).

وتعد كتاباته عن مفهوم السببية والمعجزة من أكثر النقاط الجدالية في فلسفته، وهي التي ينبني عليها موضوع هذه المقالة.

---

(١) أحد أبرز أعماله كان (تاريخ إنجلترا) في مجلدين، والذي استغرقت كتابته ٧ سنوات (١٧٥٤- ١٧٦١م) وقد كتبه من الأحدث إلى الأقدم، فبدأ من حكم جيمس الثاني (١٤٣٠-١٤٦٠م) وصولاً إلى غزو "يوليوس قيصر" لإنجلترا سنة ٥٥ ق.م.

تعريف موجز بالكاتب :

رضا محمد عزيز زيدان، باحث في فلسفة اللغة والعقل وعلوم الحديث والترجمة، تخرج من كلية الصيدلة جامعة الأزهر، صدر له عدد من المقالات والكتب الفكرية المتخصصة، نذكر منها:

(نقد الأخلاق التطورية: ريتشارد دوكينز نموذجًا).

(نحو منهج وصفي للعلم: نقد فلسفات العلم المعاصرة).

(الأخلاق العصبية: نقد اختزال علم الأعصاب المعرفي للأخلاق).

(الإجماع الإنساني: المحددات ومعايير الاحتجاج).

ومن أعماله في الترجمة:

(فتجنشتاين والبحوث الفلسفية).

❊❊❊

مقدمة أساسية :

لم يستعمل القرآن الكريم كلمة "المعجزة" للدلالة على معجزة أي نبي، وإنما يستعمل القرآن دائماً كلمة "آية" (وأخواتها مثل بيّنة وبرهان)، وهي الكلمة التي تجمع من المعاني ما هو أوسع بكثير من المعجزة، فالآية تعني العلامة والأمارة والعبرة(١)، ويستعملها القرآن الكريم في أمور عادية وأمور تُدعى خارقة للعادة، فنجد في الأمور العادية قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران ١٩٠).

ونجد في وصف ميلاد عيسى عليه السلام الخارق للعادة قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (المؤمنون ٥٠).

فبناء على الاستعمال القرآني لا يُشترط أن تكون الآية خارقة للعادة، وأن الحدث الذي يوصف بكونه آية هو حدث ذو دلالة كبيرة عند المستمعين (حدث ثقافي)، بصرف النظر عن عاديّته، فذِكر النبي ﷺ بأوصافه عند علماء بني إسرائيل آية، لأنه ذو دلالة كبيرة، وهو ليس أمراً خارقاً، كما أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد آمن بآية الصدق فقط، فقد صدّق النبي بمجرد معرفته برسول الله ﷺ، وكذلك الكسوف والخسوف آيتان رغم أنهما أحداث طبيعية.

فالمعجزة ليست هي السبيل الوحيد للإيمان، وسنطلق على الآية غير الخارقة للعادة (آية صغرى)، والآية الخارقة للعادة (المعجزة) سنطلق عليها (آية كبرى)، إصراراً منا على الإلتزام باللفظ القرآني، ولأن لكلمة الآية دلالة أوسع وأدق ستفيدنا في بحثنا.

---

(١) راجع (أيي) في معاجم اللغة.

تمهيد :

يعد الفيلسوف الإنجليزي "ديفيد هيوم" من أشهر الفلاسفة المحدثين وأكبرهم تأثيراً، ولعبت فلسفته الحسية دوراً كبيراً في نقد الدين، وفقراته إلىٰ الآن ربما هي الفقرات الأكثر تداولاً عند الملحدين من نصوص الفلسفة الحديثة، ومن أشهر ما كتب "هيوم" في نقد الدين الفصل العاشر من كتابه (مبحث في الفاهمة البشرية) بعنوان (عن المعجزة).

وفي هذا المقال سنتعرض بالنقد لمعظم ما جاء في هذا الفصل بالغ التأثير علىٰ من بعده، فلا يكاد الباحث يقرأ في فلسفة الدين وإمكان المعجزة خصوصًا من بعد "هيوم" إلا ويجد كتابات "هيوم" عرضًا ودفاعًا أو نقداً. ويبدأ نقدنا بنقد تعريف "هيوم" للمعجزة، ثم نقد تشكيكه في الشهادة أو الرواية البشرية، ونختم بالتعرض للأساس الإبستمولوجي لطرح "هيوم" حول المعجزة.

١ - التعريف :

يُعرِّف "هيوم" المعجزة بأنها: "خرقٌ لقوانين الطبيعة"[(١)].

وبعد ذلك بقليل يقول: "ويمكن أن نُعرّف المعجزة بدقة بوصفها خرقًا لقانون من قوانين الطبيعة بإرادة إلهية خاصة أو بتوسط فاعل غير مرئي"[(٢)]. وكلمة خرق أو انتهاك تُشعر بالطبع باستحالة المعجزة من حيث المبدأ، وهو ما قصده "هيوم"، لكن

(١) ديفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة موسى وهبة، الفارابي، ص١٥٨.
(٢) المرجع السابق، ص١٥٩.

هذا التعريف ليس وصفًا، بل هو توجيه معين لرؤية المعجزة في خلفية مبادئ فيزياء "نيوتن" الحتمية، وعليه إشكالات عديدة في فلسفة الدين المعاصرة[١].

فقد يقال ببساطة أن المعجزة: "لا تتضمن خرقًا للطبيعة كما يفترض البعض، وإنما هي مجرد إدخال لسبب خارجي"[٢]، مثلاً إدخال طاقة أو قوة (force) أو أي عامل فيزيائي آخر لم يكن موجوداً، والحدث الناتج بعد إدخال هذا العامل لن يعد مخالفًا لأي قوانين مفترضة (وهذا يتفق عموماً مع مَن يقول بأن الله خلق العالم لحكمة وأرسل الرسل وأيدهم لحكمة. ويتفق خصوصًا مع النموذج الأشعري للسببية الذي لا ينسب لأي شيء قدرة سببية، فالفاعل هو الله وحده لكل حدث).

وقد يحاول فيلسوف ما تكييف تعريف "هيوم" ليقبل المعجزة والقوانين أيضًا، كما فعل "ريتشارد سوينبرن"، فقد اعتبر أن أي خرق للطبيعة علىٰ أنه مُعارض لا يتكرر لقانون طبيعي ما، فإذا كان هناك قانون طبيعي يتمتع بقدرة تفسيرية كبيرة، وبسيط، فالمعقول أن نُبقي علىٰ القانون بحكم الواقع، أي بحكم ثبات القانون الملموس، ونعتبر الحدث المعجزة محل البحث مُعارض لا يتكرر لهذا القانون[٣].

أو نذهب بعيداً عن القوانين فنقول بأن المعجزة **خارج** نطاق القوانين الطبيعية، فمثلاً يقترح أستاذ الفلسفة "ريتشارد بورتيل" Richard Purtill بتشبيه لطيف أنه إذا كان لدولة مثل الولايات المتحدة مجموعة كبيرة من القوانين تنظم السلوك الإنساني،

(١) لاحظ الفرق بين التعبير المتهور "خرق قوانين الطبيعة" والتعبير الحريص في تراثنا "خارق للعادة"، فالعادة يدخل فيها الجانب الذاتي والنسبي، ولا يقول التعريف بوجود قوانين ثابتة أحادية للطبيعة، أما تعريف هيوم فهو مطالب بأن يُحدد ما هي القوانين التي تخالف معجزة مثل معجزة إحياء الموتى، وهي قوانين كثيرة ومتشعبة ثرموديناميكية وبيوكيميائية، بل وعلى مستوى الجسيمات الأساسية. للمزيد في هذه النقطة انظر:
Earman, John, 2000, Hume's Abject Failure, Oxford: Oxford University Press.

(2) Houston, Joseph, 1994, Reported Miracles: A Critique of Hume, Cambridge: Cambridge University Press. P. 109

(3) Swinburne, R. (1970), The Concept of Miracle, London: Macmillan.

ثم تم إدخال إجراءات استثنائية عرضية مثل الإعفاءات الرئاسية، فالمعجزة يمكن أن نقارنها بالإعفاء الرئاسي، حيث أن أصل الإعفاء من خارج الإجراءات القانونية العادية. الإعفاء لا يمكن توقعه، ولا يلعب دوراً في مناورة المحامي في المحكمة، حيث أنه لا يمكن الحصول عليه بأي وسيلة متاحة للمحامي خلال المحاكمة.

بالمثل، خلق المعجزات لا يدخل في نطاق نشاطات العالِم الطبيعي، لكن الإعفاء الرئاسي لا يشكل خرقاً للنظام القانوني: فالإعفاء ليس "مخالفاً" للقانون، وإنما هو "خارج" النظام القانوني. إذن المعجزة ليست "خرقاً" لنظام القوانين الطبيعية، وإنما هي من "خارج" هذا النظام[١]. وبشكل آخر يرىٰ "مايكل ليفين" أن المعجزة "مخالفة contrary to" لقانون الطبيعة، لكنها ليست مُنتهكة له، لأنه لو افترضنا أن قوانين الطبيعية غير شمولية، بمعنىٰ أنها لا تغطي إلا الأسباب الطبيعية، فليس هناك تعارض إذن في افتراض أن حدث مستحيل فيزيائياً يمكن أن يحدث، لأنه لا يزال داخل نطاق الممكن منطقياً[٢].

من جانب آخر لا يتسق تعريف "هيوم" للمعجزة مع تصوره للسببية، فـ"هيوم" يرىٰ أن السببية مجرد اقترانات متكررة، فنحن نقول أن النار تحرق لمشاهداتنا مراراً وتكراراً أن الحرق يعقب النار، فليس هناك تبرير عقلاني لضرورة الحرق وإنما هي مجرد عادة نفسية نشأت من التكرار. إن كوناً ممكناً مثل هذا الذي يتصوره "هيوم" لا بد أن يسمح بأي حدث استثنائي لا أن يمنعه أو يعتبره خارقاً، والمناسب لمنع المعجزات هو النموذج الحتمي المغلق سببياً، لكن عليه انتقادات قوية للغاية، منها

(1) A Companion to Philosophy of Religion, Second Edition, Edited by C. Taliaferro, P. Draper and P. L. Quinn, p. 398
(2) Levine, Michael, 1989, Hume and the Problem of Miracles: A Solution, Dordrecht: Kluwer Publishers. P. 67

نفيه للإرادة الحرة لزوماً، لأن "انفتاح العالم الفيزيائي" كما يقول "كارل بوبر": "لازم لنا لكي نفسر الحرية الإنسانية"(١). فالشخص هو مَن يختار وليس مجموعة من الذرات محكومة بقوانين سببية مغلقة، لكن إذا سمحنا بـ "إدخال" الشخص لتفسير فعله الجسدي في قولنا: "زيد قتل سعداً" وحمّلنا زيداً مسؤلية القتل: فلماذا لا نسمح بإدخال أي فاعل مُختار لتفسير حدث استثنائي ما؟ باختصار، رفض المعجزات بناء علىٰ أن العالَم نظام مغلق سببياً يؤدي إلىٰ إنكار الإرادة الحرة.

ومع ذلك، فالنقد الأهم لتعريف "هيوم" هو حصره دلالة النبوة في "الآية الكبرىٰ"، أو بتعبير آخر: نظرته لآية النبوة من منظور واحد، وهو علاقتها بقوانين الطبيعة. في حين أن الآية لا يشترط فيها أن تكون خارقة للخبرة الإنسانية، فضلاً عن أن تكون خارقة للطبيعة نفسها. كما أن للآية الصغرىٰ دلالة داخل السياق الثقافي الذي نشأت فيه، وهو ما يهمله "هيوم" تماماً، فإنقاذ طفل من حادثة مُحققة نتوقع باحتمال كبير جداً عدم نجاته منها؛ ثم يحدث شيء غير مُعتاد كتوقف السيارة فجأة هو آية، وستقرأها أمه وكثيرٌ ممّن حوله علىٰ أنها علامة/ إشارة/ عبرة من الله (معظمها جوانب انفعالية لكن ليست باطلة من الناحية الإستدلالية)، وستحمده علىٰ النجاة حتىٰ إن علمت بعد ذلك بأن توقف السيارة له سبب طبيعي.

هذا الحدث آية صغرىٰ، ويدل دلالة صحيحة علىٰ عناية الله بخلقه، فأهم ما في الآية صغرىٰ أو كبرىٰ هو "الدلالة" وليس مدىٰ اختلافها عن القوانين الطبيعية.

وعلىٰ ذلك يكون تعريف المعجزة المُلحّ: علامة ذات دلالة قوية علىٰ أن صاحبها مُرسلٌ من عند الله. وهذا يعني أن المُتلقي للمعجزة لا بد أن يكون صاحب نظرة

---

(١) كارل بوبر، النفس ودماغها، ترجمة عادل مصطفى، ص٩٣.

دينية للعالم، أي: مؤمن بخلق الله للطبيعة وبأنه يمد البشر بما هم في حاجة إليه، وعلىٰ رأس ذلك الهداية، فيرسل رسلاً لقطع العذر. هذا هو الإطار الثقافي للمعجزة المختلف كثيراً عن الإطار الثقافي المعاصر، وعادةً مَن لا يفهم الآية الصغرىٰ لا يفهم المعجزة، لذلك يعقب المعجزة عذابٌ أليم علىٰ مَن رفضها لشدة دلالتها. هذا لا يعني أن المعجزة حالة ذاتية (بل الآية الصغرىٰ ليست حالة ذاتية، لكن هذا الموضوع يطول وليس محله هنا) بل هناك محتوىٰ موضوعي ينقله المعاصرون للمعجزة، وهو ما سنناقشه الآن.

٢- مصداقية نقل المعجزة:

حيث أن المعجزات بطبيعة الحال حدث تاريخي منقول بالرواية يضع "هيوم" القارئ في مأزق، إما أن يقول بالمعجزة بتعريفها التحريضي: "خرق قوانين الطبيعة" أو يُكذّب الرواة ببساطة.

من حيث المبدأ يقلل "هيوم" من شأن الرواية أو الشهادة بشكل عام، فالشهادة ليست إضافة معرفية بجوار الخبرة، بل هي تابعة للخبرة، فـ"الخبرة وحدها هي التي تعطي الشهادة البشرية سلطة"[١]. ولولا أن الخبرة قالت بأن البشر تميل في العادة الإخبار بالصدق والاستقامة، والشعور بالخجل من كشف كذبهم: لما كنا أولينا الشهادة البشرية أدنىٰ ثقة[٢]. ويضع "هيوم" بعض الشروط الأساسية لقبول الشهادة، كأن يكون الرواة أو الشهود بالعدد الكافي، وذوي طباع سليمة، وليس لهم مصلحة

(١) ديفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، ص١٧٣.
(٢) المرجع السابق، ص١٥٥.

في الإدلاء بزعمٍ ما، وعدم التردد في الشهادة[١]. وإذا كان الحدث غريباً ولافتاً فهو بحاجة إلىٰ "شهادة قوية"، مثلاً -وهو مثال هيوم- عندما يقال لسكان إقليم حار بحدث تجمد الماء في إقليم بارد. وهو حدث طبيعي لكنه لا يحدث عندهم. فما بالنا لو كان المحتوىٰ المنقول هو حدث "خارق للطبيعة"؟ يقدم "هيوم" هنا مُسلّمة صريحة: "إن أي شهادة لا تكفي لإثبات معجزة إلا إذا كانت الشهادة من النوع الذي يكون كذبها أكثر إعجازاً من الواقعة التي تحاول إثباتها، وحتىٰ في هذه الحالة يحصل دحض متبادل للحُجج وتعطينا الحُجة الأقوىٰ وحدها يقيناً متناسباً مع درجة القوة الباقية بعد طرح القوة الأضعف"[٢]. وعلىٰ ذلك، أي شهادة هذه التي يكون تكذيبها أصعب من "خرق قوانين الطبيعة"؟ ولأن هذا الجزء إبستمولوجي يتعلق بطبيعة المعرفة البشرية سنفرد له فقرة قادمة للرد.

أما عملياً فإن "هيوم" يرفض أي وجود لشهادة معتمدة لمعجزة ما، إذ "لم يوجد البتة أي حادث مُعجز قائم علىٰ بينة بمثل هذا الاكتمال"[٣]، و"أي شهادة، لصالح معجزةٍ من أي نوع، لم تبلغ حد الاحتمال ناهيك عن الإثبات"[٤]. وسبب هذا الرفض يتلخص في النقاط التالية:

(١) لا يمكن أن نجد في التاريخ كله معجزة يشهد لها عدد كاف ممّن لا ريب في سلامة حسهم وتربيتهم وعلمهم، بما يضمن لنا عدم وقوعهم فريسة للوهم، وممّن يتمتعون بالكمال الذي لا مرية فيه إلىٰ حد يضعهم فوق أي شبهة في إرادة خداع الآخرين، وممّن لديهم رصيد وشهرة عند الناس كبيرين إلىٰ حد أنهم سيخسرون

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٦.
(٢) المرجع السابق، ص١٥٩.
(٣) المرجع السابق، ص٦٠.
(٤) المرجع السابق، ص١٧٣.

كثيراً لو اكتشفنا أي كذبٍ لديهم، وأن تكون الواقعة علنية، وفي منطقة معروفة يتحتم كشف الزيف فيها.

(٢) الأفضلية دائمًا لخبرتنا السابقة وما هو معتاد، والمعتاد أكثر احتمالاً من الغريب. ولا بد أن نقاوم شهوتنا في النزوع نحو الغريب والمدهش.

(٣) الشهادة المتعلقة بأمر ديني خصوصًا لا يمكن الثقة فيها، لأن المتدين يكون عادة متحمسًا، "ويتصور رؤية ما لا حقيقة له، وقد يعرف أن ما يرويه كاذب ويثابر مع ذلك عليه، مع أفضل النوايا في العالم، بهدف تعزيز قضية بالغة القداسة".

(٤) الروايات المعجزة والخارقة تُلاحظ بوفرة عند الأمم الهمجية الجاهلة.

نلاحظ في النقاط السابقة أن كلها سلبية إلا الأولىٰ، التي تضع شروطًا إيجابية لقبول المعجزة ولو علىٰ سبيل التنازل، وسنبدأ بمناقشة النقاط السلبية أولاً ثم نفحص شروط النقطة الأولىٰ.

النقطة الثانية: من الناحية المنطقية مشاهداتنا المتكررة لكون الجماد لا يتكلم لا يُبرر عدم إمكان تكلمه، لأن الاستقراء لا يُبرر المستقبل كما هو معلوم. ومن الناحية الواقعية فالحوادث الاستثنائية بطبيعتها أو بحكم التعريف نادرة الحدوث، وهذا لا يُبرر موقف "هيوم" من رفض إمكان حدوثها، كما أن ميل الناس للغريب ونشر الخرافات والأساطير وإضافة الزوائد للحكايات لا يُبرر رفض إمكان صحة الحكاية الأصلية. وإنما يحتم علينا التروي والنظر في الحكاية وعدم التسليم بها إلا بعد الفحص الدقيق في ضوء القرائن التي لا تُحصر.

أما النقطة الثالثة: والتي تجعل العاطفة الدينية الشديدة حائلاً دون الحس السليم، وهي النقطة الأشهر والأكبر تأثيراً في النقاش المعاصر، فلا شك أن العاطفة عموماً تؤثر علىٰ القرار الإنساني، وأن الحماس القوي يعمي أحياناً عن رؤية الحق، لكن عند تطبيق هذا علىٰ أي حالة بعينها (وهي هنا جماعة الصحابة) فلا بد من النظر إلىٰ سياق تلك الحالة، فلم يكن الصحابة (وغيرهم من المقربين للأنبياء السابقين) صفحات بيضاء خالية من أي دين سابق، وإنما تربوا علىٰ دين وثني انفعلوا به واستقرت نظرتهم لحقيقة الدنيا من خلاله قبل أن يأتي الدين الجديد، وحتىٰ بعد الدين الجديد كانوا يتذاكرون أشياء من الجاهلية للتسلية، بل إن بعض الصحابة عندما كانوا حديثي عهد بكفر قد طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط، وهو طلب شركي جاهلي أنكره النبي ﷺ تمام الإنكار.

هذه التربية والولاء كانت سبباً –من ضمن أسباب أخرىٰ– لتأخر بعض الصحابة الكبار في اعتناق الإسلام. إن لحظة الإسلام كان يسبقها تدافع بين عاطفة الموروث والعاطفة الدينية الجديدة نحو الإسلام (كأي قرار مصيري في حياة الإنسان)، فلم يكن هناك عاطفة جديدة أُحادية طاغية للدين وكأن الصحابة نشأوا في مناخ إلحادي، بالعكس، كان الصحابة قبل الإسلام يعرفون الله، ويعرفون الكثير من المفاهيم الإسلامية، مع انحرافات شركية لم يكن يُنظر إليها علىٰ أنها كذلك، ومناخ مثل هذا له عاطفته بطبيعة الحال، وأدعىٰ لـ "رؤية ما لا حقيقة له"، أي أدعىٰ إلىٰ تكذيب كل معجزة، وليس إلىٰ قبول عاطفة جديدة لم يُكتب لدينها النصر بعد.

كل هذا علىٰ أساس أن العاطفتين متساويتين في الكلفة، والأمر ليس كذلك أبداً، فالإسلام مكلف علىٰ مستويات كثيرة، كمحاربة الأهل المشركين المعتدين وبذل المال والجهاد باستمرار والتحلي بأخلاق معينة وغير ذلك، وصبر الصحابة علىٰ

الجهاد أشهر من أن يُذكر. أما الجاهلية فكان بوسع العربي أن يعيش سعيداً دون الالتفات إلىٰ قضايا دينية كبرىٰ، أو كما يقول "توشيهيكو إيزوتسو" في كتاب (الله والإنسان في القرآن): "لقد كان باستطاعة الإنسان الجاهلي أن يحيا هانئًا مرتاح البال من دون الحاجة إلىٰ التنبه علىٰ الإطلاق إلىٰ أصل وجوده الخاص"، وهذه الغفلة عن الخلق ولازمه وهو العبادة علة تذكير القرآن للمشركين بأن الله هو الخالق.

باختصار: نظراً لكلفة الإسلام، فالراجح عقلاً أن يرفض أي معاصر للنبي ﷺ الإسلام، وألا ينظر لمعجزته علىٰ أنها معجزة.

فإن قيل إن رواة المعجزات الحسية كانوا بالفعل مؤمنين عاشوا فترة طويلة في الإسلام؛ فالجواب أن كونهم مؤمنين لا يعني أن إيمانهم ثابت، أو أنهم نسوا الجاهلية تمامًا، بل الإيمان كأي شعور إنساني يزيد وينقص، وقد بوب الإمام البخاري "باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك"، ودلائل النبوة كانت علىٰ رأس زيادة الشعور الإيماني، وفي نفس الوقت محل اختبار للنبوة وللإيمان، فقد ارتد عدد من الصحابة بعد حادثة الإسراء والمعراج مثلاً، وهي أمر مخالف للعادة اتفاقًا. وكما أن الجهاد كان قائمًا دائمًا، فلم يؤمن الصحابة وجاهدوا لفترة ثم اطمئنوا فنظروا إلىٰ أفعال نبوية علىٰ أنها معجزات بسبب تقديسهم لشخص النبي ﷺ، وإنما الكلفة كانت مستمرة، وهذه الكلفة ستعادل علىٰ الأقل العاطفة الدينية المتحمسة أحيانًا بإفراط (في نظر هيوم).

ومن الكلفة أيضًا الأوقات العصيبة التي يأتي الوحي فيها بأوامر خفية الحكمة، مثل قبول صلح الحديبية، أو سكوت الوحي لفترة عن حدث عظيم مثل حادثة

الإفك، كل هذه الأوقات لا تساعد علىٰ الأقل العاطفة المتحمسة. كما أن القرآن قد أكد كثيراً علىٰ بشرية النبي ﷺ وأن الآيات (المعجزات) ليست من عنده، بل من عند الله، وأنه مُبلغ عن الله فحسب، هذه الصورة لا تدعونا كما هو واضح إلىٰ القول بأن عاطفة دينية متحمسة تقديسية عند الصحابة أضعفت قدراتهم الإدراكية وأوهمتهم بالباطل. إن الخطأ الذي وقع فيه "هيوم" هو تصوير الإيمان الديني باعتباره لحظة حماسية تحدد ما يراه الإنسان بعدها وتنسيه تماماً ما قبلها، مثلما تصور الأفلام الكلاسيكية توبة البطل أو انقطاعه عن الجرائم لدافع أخلاقي كلحظة عرضية تُغير مجرىٰ حياته للأبد.

أما النقطة الرابعة فأقول: تسببت الثورة العلمية وعصر النهضة في جعل العقل الأوروبي مستعلياً علىٰ أي عقل آخر، ونرىٰ بوضوح انتقاصاً شديداً عند "هيوم" من عقلية الإنسان ما قبل العلم (أو التسمية التقنية: البدائيين)، أو سوء تصوير لحالهم يدل علىٰ جهل كبير كما عند "جون لوك"، الذي قال أن الشعوب البدائية لا تعرف الدين، وغير ذلك من الأقوال المردودة الآن من قطاعات معرفية كثيرة، مثل الأنثروبولوجيا وعلم الإجتماع الديني، بل حتىٰ علم النفس التطوري الذي يدرس حضور الدين دائماً! رغم أن في بداية الأنثروبولوجيا والاجتماع كانت النظرة سلبية للبدائيين وتشبه نظرة "هيوم"، حيث كان "يعتقد كثير من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع وبخاصة الأوائل منهم أن الرجل البدائي عاجز عن التفكير التجريدي وتكوين المفهومات والتصورات العامة الكلية... ويرفض العلماء المحدثون هذه النظرة الضيقة المتحيزة، ويبنون رفضهم علىٰ خبرتهم الخصبة الطويلة بالشعوب البدائية، ودراسة أنساقهم الدينية وآرائهم عن الكون ونظرتهم إلىٰ الحياة"(١). بل إن

---

(١) أحمد أبو زيد، نظرة البدائيين إلى الكون، مجلة عالم الفكر، ١٩٧٠، المجلد الأول، العدد الثالث.

بعض الطبيعانيين والماديين يذهب إلىٰ أن الإنسان البدائي كان طبيعانيًا، وهذا يدل في نظرهم– ولا أوافقهم عليه– علىٰ أنهم وجدوا تشابهًا في منهجية التفكير بيننا وبين "البدائي". ولو صرفنا النظر عن ذلك الكلام العام؛ فإن "هيوم" واقع في إشكال خاص أمام "نيوتن" الذي يُعد المثل العلمي الأكبر عند معظم فلاسفة عصر التنوير، إذ أن "نيوتن" نفسه كان يقول بالمعجزات، وبأن الله خلق العالم بطبيعة الحال، وكذلك "روبرت بويل"، الكيميائي اللامع، بل معظم المفكرين الكبار الذين ظهروا في عصر النهضة وكانوا بمثابة القدوة لدىٰ "هيوم" في التعليم والتربية وحُسن الرأي، قد تعلموا علىٰ يد مسيحيين مؤمنين بالمعجزات، ويعتبرون المعجزات الدليل الأشهر علىٰ وجود الله لا علىٰ النبوات فقط. فهل يقول "هيوم" بأنهم همجيون؟

والآن...

نعود إلىٰ الشروط الواردة في النقطة الأولىٰ: ولنأخذ مثالاً لمناقشتها من المعجزات الحسية الكثيرة المنقولة عن النبي محمد ﷺ (وبالمناسبة، فقد رفض هيوم معجزات النبي الحسية تمامًا، باعتبار أن العرب الناقلين عنه من الأمم الهمجية)، وهو حنين الجذع إلىٰ النبي ﷺ، فقد أخرج البخاري عن الصحابي جابر بن عبد الله: "أن النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ كان يقوم يوم الجمعة إلىٰ شجرةٍ أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار ـ أو رجل ـ: يا رسول الله : ألا نجعل لك منبراً ؟، قال: إن شئتم، فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة دفع إلىٰ المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فضمه إليه يئن أنين الصبي الذي يسكن، قال : كانت تبكي علىٰ ما كانت تسمع من الذكر عندها". وهي معجزة يعتبرها الإمام الشافعي أكبر من إحياء الموتىٰ، فقد قال: "أُعطي محمداً حنين الجذع

الذي كان يقف يخطب إلىٰ جنبه، حتىٰ هُيئَ له المنبر، فلما هُيئَ له المنبر، حنّ الجذعُ حتىٰ سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك [أي من إحياء الموتىٰ]"[١]. فهذا الحدث "تكلم الجماد وتفاعله وانفعاله" يخالف خبرتنا المعهودة عن الجماد، وشهده عدد كافي طبقًا لأهل التاريخ، فابن كثير مثلاً يقول عن هذا الحدث: "وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان"[٢]. ويقول ابن حجر: "حنين الجذع وانشقاق القمر نُقل كل منهما نقلاً مستفيضًا يفيد القطع عند مَن يطلع علىٰ طرق ذلك من أئمة الحديث دون غيرهم ممّن لا ممارسة له في ذلك"[٣]. ويقول البيهقي: "وأمر الحنانة [أي حنين الجذع] من الأمور الظاهرة والأعلام النيرة التي أخذها الخلف عن السلف"[٤]. وغيرهم من الأئمة القائلين بتواتر هذا الحدث.

لكنني تنزّلاً سأعتبر نقل هذا الخبر نقل آحاد وليس متواتراً، وتنزلاً سأعتبر أن النبي ﷺ لم يُنقل عنه معجزات أخرىٰ إذا ضُمت إلىٰ بعضها البعض ستصل إلىٰ التواتر[٥].

ولننظر في شروط "هيوم" هل تنطبق أم لا ؟، فمن حيث العدد فقد روىٰ هذا الحديث عشرة من الصحابة علىٰ الأقل، بعضهم رأىٰ الحدث بحاسته وبعضهم سمع به بعد اشتهاره بين الصحابة، وهو في هذه الحالة بمثابة مؤرخ للحدث، وقد يقول "هيوم" أن هذا العدد غير كاف بالنسبة له، لكن أي عدد سيشترطه "هيوم" سنجد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الشافعي بسند صحيح في كتابه (آداب الشافعي ومناقبه).
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣٨/٦ ط. إحياء التراث.
(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٥٩٢/٦.
(٤) البيهقي، دلائل النبوة، دار الكتب العلمية، ٥٦٣/٢.
(٥) كما نضم آحاد المنقولات (المواقف الجزئية) عن شجاعة حاتم الطائي لنصل إلى حكم كلي متواتر هو شجاعة هذا الشخص، كما قرر المناطقة.

احتمالية **منطقية** بتواطؤ المُخبرين بالحدث، والعبرة في الأخبار هو القرائن لا المنطق! ومن ثم فالمقابلة هنا بين القرائن التي مارسها المؤرخون لتصحيح الخبر وشروط "هيوم". سننظر مثلاً في قرينة إمكان تكذيب الخبر علىٰ يد صحابة آخرين لازموا النبي ﷺ، خصوصاً أن نصر الله لهم وتمكنهم (وقيمة القرآن وتأثيره) بعد وفاة النبي أبلغ دلالة قطعاً من مجرد حادثة منقولة لتابعي، كما أنه من المعلوم تاريخياً أن هؤلاء الصحابة (والعرب جملة) يمقتون الكذب جداً، ونُقل عنهم مُراجعات لتثبيت الأخبار، بل والنهي عن التحديث بما قد يثير فتنة. هذا من ناحية الصدق، أما من ناحية الوهم بسبب العاطفة فقد رددنا عليه قبل قليل. سنجد أن هذه القرينة التاريخية هي المعمول بها في التاريخ وليس شرط "وجود عدد كافي" أو شرط عنصري –لا يمكن أن يتوفر في معظم التاريخ- لا يرىٰ عقلانية إلا العقلانية الأوروبية هو "التربية والعلم" أو "الكمال"، وكأن الكمال مفهوم علمي محفوظ. أو شرط تعسفي هو "رصيد وشهرة عند الناس كبيرين إلىٰ حد أنهم سيخسرون كثيراً لو اكتشفنا أي كذب لديهم"، وهو شرط متناقض، لأن شهرة هؤلاء الناس ومكانتهم بين الناس ودوافعهم هي أمر تاريخي أيضاً، كما أن كل ما هو مطلوب هو نقل خبر بالحس من أفراد فحسب. وإلا من الناحية المنطقية يمكن أن يقال أن رجالاً بهذه الأوصاف من الطبيعي أن يكون لهم غرض سياسي بسبب سلطتهم بين الناس، وهذا سيؤثر علىٰ شهادتهم.

٣- الأساس الإبستمولوجي لاعتراضات هيوم:

"إن اهتمام هيوم بطبيعة المعرفة والاعتقاد البشري وبالحدود الصحيحة للقدرات الإدراكية للإنسان هو ما حفز انتباهه إلىٰ الموضوعات الجزئية التي عالجها في كتابه (مبحث في الفاهمة البشرية)، والفصل العاشر: (عن المعجزات) له محله في هذا المشروع الأوسع"(١). لذلك فنقد فلسفة "هيوم" في المعرفة سيؤثر بشدة علىٰ قيمة حُججه في المعجزة، لكن هذا الموضوع طويل جداً لا يسعه المقام، لكن سنكتفي هنا بنقد يهمّ جداً المُتمسكين بالعلم والمعرفة العلمية. فقد ذكرنا أن تعريف "هيوم" للمعجزة عليه إشكالات قوية، لكن لم نذكر نتيجة هذه الإشكالات علىٰ العلم.

وهي: عجز هيوم عن التفريق بين المعجزة والأعجوبة. بشكل آخر: عجز "هيوم" عن التفريق بين المعجزة والملاحظة الشاذة في العلم. فقد بيّن فيلسوف العلم الكبير "توماس كون" أن العلماء يعيشون في أنساق ينظرون بها للنظريات الجديدة (باراديم)، أي قواعد ضمنية يتفق عليها العلماء ويسلمون بها من أجل التعلم وممارسة العلم نفسه. ثم تأتي الملاحظة الشاذة (الجديدة) التي تخالف ما هو معتاد من نظريات، فإذا لحقتها ملاحظاتٌ شاذة أخرىٰ (أي تعجز النظريات القديمة عن احتوائها) سيواجه العلم ثورة علمية جديدة بقرار تدريجي من العلماء، إذ سيحدث أزمة بين أنصار النظرية القديمة المُقللين من قيمة الملاحظات الشاذة؛ وبين أنصار التصور النظري الجديد، حتىٰ ينتصر الباراديم الجديد في النهاية (أو يعيش القديم والجديد معـًا كما استدرك بعض فلاسفة العلم علىٰ توماس كون).

فمثلاً، ظلت مبادئ الفيزياء النيوتنية باراديمـًا شهيراً للممارسة العلمية، لأنها فسرت نطاقـًا واسعـًا من المشكلات، وذات قدرة تنبؤية عالية. لكن جاءت الملاحظة الشاذة حيود كوكب عطارد قليلاً عن مداره حول الشمس بشكل طفيف مما يخالف

(1) Reported miracles p. 66

تنبؤات النظرية النيوتينية، ومع مشاهدات أخرىٰ شاذة حدثت الأزمة بين النيوتنية والأينشتينية. وهنا فكرتان مهمتان:

- إن وجود إطار متفق عليه ضمنيًا بين العلماء ليس أمراً يختبره العالِم، أي أن العالِم لا يختبر مبادئ الفيزياء النيوتنية كلها وتبعاتها كلها، وإنما يسلم بها كـ "شهادة" أو "رواية" صحيحة، فالنقل متأصل في الخبرة إن لم يكن سابقًا لها (ومن هنا ظهرت النزعة النسبوية في العلم، إذ أن الموروثات أو القواعد بين العلماء ستؤثر في حكمهم علىٰ النظريات، لكن هذه النقطة تحتاج معالجة خاصة لا تهمنا هنا[١]). المهم أن الخبرة لا تسبق النقل علىٰ الأقل فضلاً عن أن تكون مصدر المعرفة الوحيد. وهذا يعني أن رفض "هيوم" للشهادة أو النقل من حيث المبدأ يمنع أي ممارسة علمية.

- إذا التزمنا بمعالجة "هيوم" للمعجزة (المتأثرة بالحتمية النيوتنية تأثراً خفيًا) سنمنع أي ملاحظة شاذة باعتبارها "خارقة للقوانين الطبيعية"، لأن خبرتنا التي سادت لفترة طويلة (خبرة العلماء هنا) جاء ما يخالفها أو "يخرقها". وإلا علىٰ "هيوم" أن يضع معياراً مقبولاً للتفرقة بين المعجزة والأعجوبة (الملاحظة الشاذة).

***

(١) انظر كتابنا (نحو منهج وصفي للعلم)، من إصدرات مركز براهين. فيه معالجة شاملة لهذه النقطة، وأيضاً لعرض آراء فلاسفة العلم وتأثير توماس كون علىٰ مَن بعده ونقد أفكاره أيضاً، وردي علىٰ النزعة النسبوية والنزعة العلموية (الجزء المعروض أعلاه من أفكاره الصحيحة).